السنة الأولى ماستر تاريخ الوطن العربيّ المعاصر

اسم الوحدة: المصادر الغربية وتاريخ الوطن العربي

عنوان المحاضرة: المصادر الغربية

الأستاذ: حسين محمد الشريف

تابع للمحاضرة السابقة:

لقد بذل فلادمير لوتسكي من الجهد ربع قرن في متابعة الصحف والمجلات والكتب والرسائل الأكاديمية التي تناولت أحداث الثورة السورية الكبرى. مستفيدا في التحليل والمناقشة من تلك المصادر ومن مذكرات القادة الفرنسيين، والصحفيين الذين تابعوا الثورة عن كثب وكتبوا انطباعاتهم حولها، وبرز ذلك الجهد المركز بوضوح في بحث علمي أسماه " الحرب الوطنية التحررية في سوريا "1925-1927م"" أنجز منه ثمانية عشر فصلا في فترات متقطعة كان آخرها عام 1956م، ووعد بإنجاز فصل آخر على الأقل، يبرز فيه كيفية تعاطي الثوار السوريين في المسألة الطائفية في سوريا ولبنان، وكيف استطاعوا آنذاك، ولأول مرة، إفشال السلاح الاستعماري الطائفي الذي لطالما لجأ إليه الاستعماريون الفرنسيون والإنجليز، منذ القرن 19م، لتوطيد أقدامهم في جبل لبنان تمهيدا للتوسع منه نحو المشرق العربي كله.

وحيث لو أنجز فلاديمير لوتسكي هذا الفصل بعد تلك السنوات الطويلة من التوثيق الدقيق، لكان قدم لنا نموذجا يعبر عن وجهة نظره في المسألة الطائفية في سوريا ولبنان إبان احتدام الصراع الوطني والقومي ضد العدو الخارجي.

لكن ذلك الفصل لم ينجز ولعله كان يخطط لفصول أخرى لأن الدراسة جاءت مبتورة في القسم الأخير منها إذ انتقل الباحث فجأة إلى الخاتمة، وآثر أن يبقى الكتاب مضروبا على الآلة الكاتبة حتى وفاته سنة 1962م، فقامت بنشره زوجته المؤرخة –ن-لوتسكايا، وتلميذته المؤرخة المشهورة إ.م.سيميليانسكايا فأبصر النور باللغة الروسية عام 1964م في 335 صفحة، وتأخر صدوره، دون مبرر مقبول، باللغة العربية حتى عام 1987م فحرم القارئ العربي من جهد علمي هو الأكثر غنى وشمولية حول الثورة السورية الكبرى.

- كتب فلاديمير لوتسكي دراسته هذه في ظروف سيطرت فيها مقولة "طبقة ضد طبقة" وهي المقولة التي تركت بصماتها على أعمال الأحزاب الشيوعية نفسها في البلاد العربية.

- وضع لوتسكي الغالبية من قوى البرجوازية على اختلاف شرائحها وكبار الملاكين وأعيان الريف في خانة القوى العميلة الداعمة للاستعمار الخارجي أو المتواطئة معه وهذا غير صحيح تماما، غير أنه تنبه إلى خطورة هذا الاتجاه وتراجع عنه.

- يشير إلى أن الثورة السورية الكبرى وجدت موقعها في السيرورة التاريخية العامة لنضال الشعب السوري خاصة جماهيره الفلاحية ضد التسلط العثماني والأجنبي في منظاره معا، والسمة الأساسية لتلك السيرورة أن الولايات السورية قد تحولت في أواخر القرن 19م، ومطلع القرن 20م شأن السلطنة العثمانية بأسرها إلى شبه مستعمرة لرأس المال المالي الأجنبي، واتخذت تلك العملية سمات كولونيالية خاصة بها.

- اتخذ موقفا سلبيا من الملك فيصل الأول والقوى المتعاونة معه ويسميها "الحزب الفيصلي الرجعي"، ويرى أن الفرنسيين راهنوا على الملك فيصل الأول لمواجهة الحركة الثورية المتصاعدة في سوريا ولبنان خلال عامي 1919و 1920م وهذا غير ثابت تاريخيا بالعودة إلى المصادر التي ألفها من عاصروا تلك الأحداث وصنعوها وكتبوا عنها أمثال أبو خلدون ساطع الحصري، محب الدين الخطيب، محمد عزة دروزة، سليمان البستاني...

- كما نراه يهاجمه بعنف حين يقول: " كان فيصل يمارس في الواقع سياسة التواطؤ مع الإمبريالية ويقمع نضال الثوار، وسمح للقوات الفرنسية بعبور أراضيه في طريقها إلى تركيا لضرب حركة التحرر فيها، وحاول إعادة الإقطاعيين الهاشميين إلى البرجوازية في ظل سيطرة الهاشميين على هذا التحالف، وخداع الجماهير الشعبية وتهدئة الحركة الجماهيرية، وعزل العناصر الوطنية الثورية... في تلك الأجواء جرت معركة ميسلون، وفي 25يونيو 1920م دخلت القوات الفرنسية الغازية دمشق وأصبحت سوريا كلها مستعمرة للإمبريالية الفرنسية..." "كلام يمكن أن يقال فيه الكثير وعليه يجب أن يؤخذ بتحفظ".

- شيوعية فلاديمير لوتسكي جعلته يربط قيام الحرب الوطنية السورية في منظور بظروف تاريخية عالمية جديدة وهي أزمة الرأسمالية والنظام الاستعماري، والنهوض العارم لحركات التحرر الوطني في أرجاء المشرق العربي المحتل واستيقاظ شعوب الشرق وتأثير ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى، ويتضح من ذلك أنه كان يبحث عن عمق المحتوى الطبقي للثورة السورية الكبرى، " صراع الفلاحين ضد كبار الملاكين، القيادة الثورية الموحدة، الجيش الثوري للشعب السوري".

- كان يحتج بشدة على استخدام الصحفيين الأجانب للتعبير عن هذه الثورة باسم العصابات الوطنية وحرب العصابات بدل حرب التحرير الوطنية، وحرب الأنصار وفصائل الثوار...

- المبالغة أحيانا في التشدد على دور الحزب الشيوعي السوري اللبناني في الثورة ودور جريدته "الإنسانية" وعلى موقف الحزب الشيوعي الفرنسي ولسان حاله جريدة « l'humanité » ودعوتها الجنود الفرنسيين إلى التآخي مع الشعب السوري وتوجيه بنادقهم إلى صدور ضباط الإمبريالية الفرنسية، والظاهر تاريخيا أن ذلك الموقف كان ذا طابع إعلامي فقط ولم تترتب عنه أي نتائج على مجريات الثورة.

<u>بعض الملاحظات والاستنتاجات:</u>

- اتخذ لوتسكي منذ البداية، موقف المدافع الصلب عن مصالح السوريين ضد السياسة العدوانية للإمبريالية الفرنسية في منظوره وكان لا يترك إشارة ولو عابرة لكاتب أو صحفي أجنبي، إلا ويعلق عليها بما يخدم الثورة والثوار في رأيه .

- عندما حاولت الصحافة الأجنبية تصوير الثورة السورية كتمرد إقطاعي رجعي ضد الحضارة الغربية، ينبري لوتسكي للرد على تلك المقولة قائلا: " كان الذين سربوا هذا النبأ على علم يقين أن الأمر ليس تمرد أسرة إقطاعية درزية واحدة بل انتفاضة عامة للفلاحين الدروز..."

- الثورة السورية الكبرى في نظر لوتسكي هي مرحلة متقدمة من سيرورة تاريخية طويلة لنضال الشعب السوري نحو الاستقلال والحرية والسيادة الوطنية.

- و ردًّا عن المقولات التي تنعت الثورة بأنها صنيعة الإنجليز، أو أن وراءها عملاء الكومنترن الشيوعيين، قال:

" نجمت الثورة عن ضغط النير الاستعماري للإمبريالية الفرنسية... وكانت لها جذورها الداخلية العميقة، لذا لم يكن بإمكان أية مؤثرات خارجية باستثناء العدوان الأجنبي السافر، عدوان الإمبريالية الفرنسية، أن تولد ثورة شعبية شاملة بهذه القوة، وبهذا الاتساع..."

-أبرز لوتسكي همجية الفرنسيين، وبين كيف أحرقوا أكواخ الفقراء والعمال وسلبوا المواشي ونهبوا الممتلكات، ونكلوا بالثوار وعدموا القرى والأحياء الفقيرة، في المدن عقابا على مشاركتها في الثورة التي بينت للمستعمر الفرنسي أنه لم يعد بإمكانه أن يحكم سوريا بالأساليب القديمة، فأخذ يفتش عن أشكال جديدة أكثر مرونة للسيطرة الاستعمارية.

<u>و ينتهي الكتاب بهذه العبارة ذات الدلالة البالغة:</u>

" عظيمة هي الأهمية العالمية لحرب 1925-1927م التحررية السورية، فقد اندلعت في مرحلة الاستقرار النسبي المؤقت للرأسمالية، وأظهرت إلى جانب الثورة الصينية

العظمى، والحرب الوطنية التحررية في المغرب "يقصد بها ثورة الريف" أن الأزمة العالمية للرأسمالية مستمرة، وأن أية تطورات آنية ومؤقتة لا يمكن أن تنقذ النظام الاستعماري من انهياره الحتمي."

إن دراسة لوتسكي حول الحرب الوطنية التحررية في سوريا "1925-1927م" تعبير عن حب رائع يكنه الباحث السوفياتي آنذاك الروسي حاليا الكبير لنضال الشعب السوري ضد الإمبريالية الفرنسية في نظره، ففيها متابعة دقيقة إلى أقصى درجات الدقة والشمولية ليوميات الثورة والثوار، ومناقشة عدد كبير من الآراء والبيانات والأخبار التي نشرها الباحثون والصحفيون الأجانب ودوائر الاستخبارات الاستعمارية خاصة الفرنسية منها.

- نجح الباحث في وضع الثورة السورية في إطار سيرورة النضال التاريخي للفلاحين والعمال السوريين منذ القرن 19م مما سهل فهم الكثير من سماتها وتطور نضالها.

- إن دراسته شكلت سجلا حافلا للبيانات ذات الطابع الوطني والقومي الاجتماعي الطبقي منها شعار "الدين لله والوطن للجميع" الذي صدر به الثوار بياناتهم خاصة تلك الموجهة منها إلى جماهير المناطق اللبنانية.

- أخيرا قد يلام لوتسكي أنه بالغ في حبه للثورة الوطنية التحررية في سوريا وفي إبراز دور العمال والفلاحين في قيادتها وفي دعم القوى العالمية لها.

- وهي مواقف قد يلام عليها كمؤرخ مدقق لأنه أعقل بعض الجوانب السلبية في مسار الثورة وفي بعض الممارسات التي قامت بها جماهير شعبية مقموعة وغير منظمة ولم يسلم عملها من بعض التصرفات الشائنة ومن أعمال السلب والاعتداء.

- وقد يلام أيضا كمؤرخ مدقق وله باع طويل في البحث والتنقيب، أنه أهمل وثائق أساسية في الأرشيف السوفياتي وفي الأرشيف الفرنسي وفي الصحف والدراسات العربية...لكن انحيازه الكامل للشعب السوري المناضل ضد الامبريالية الفرنسية في نظره دفاعا عن حقه المشروع في الحرية والاستقلال والسيادة الوطنية والقومية جعل من دراسته هذه سجلا تبرز من خلاله، لأول مرة، رغم الكتابات الكثيرة بلغات متنوعة عن الثورة السورية الكبرى التي سطر فيها الشعب السوري أروع صفحات النضال التحرري العربي في النصف الأول من القرن 20م.

- أخيرا إن دراسة فلاديمير لوتسكي دراسة علمية ستساهم لا شك وبعمق في تصحيح مسار الكتابة التاريخية حول الانتفاضات الشعبية في الوطن العربي والانفكاك من أسر الدراسات التي تبنى على وثائق الأرشيف الاستعماري فقط.

- ولا بأس هنا وقبل أن نتطرق إلى مصادر غربية أخرى تعني تاريخ الوطن العربي ذات مشارب وأهداف وأغراض أخرى مختلفة عن المصادر السوفياتية، أن نعرج بشكل موجز عن مصدر تاريخي مهم أنجزته أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي * الموسوم بتاريخ الأقطار العربية المعاصر الذي جاء في 842 صفحة، وهو أول بحث جماعي وأول محاولة في المطبوعات السوفياتية لعرض تاريخ العالم العربي في أحدث مراحله بصورة منهجية، وأن الوقائع الكثيرة المذكورة في الكتاب تبين أن جوهر سياسة الدول الإمبريالية حيال البلدان العربية لم يتغير في سياق عشرات السنين، وأن أشكال الاضطهاد والاستثمار الخارجية هي وحدها التي تغيرت، وهذا ما يشهد عليه تاريخ التطبيق العملي لنظام الانتداب والمحاولات الهادفة إلى صون وبعث السيطرة الإمبريالية على البلدان العربية بواسطة أحدث طرائق الاستعمار الجديد.

- والغاية من كتاب "تاريخ الأقطار العربية المعاصر"1917-1970"" هي المساهمة في فهم واحدة من أهم وسائل التطور في الشرق العربي، هي مسألة تحول الثورة التحررية الوطنية إلى ثورة اجتماعية.فإن مضمون الكتاب يبين أن نضال الجماهير الكادحة في البلدان العربية من أجل التحرر الاجتماعي مرتبط ارتباطا لا انفصام لعراه بالنضال ضد السيطرة الإمبريالية، ومن أجل التحرر الوطني، ففي كلا الحالتين يجري النضال ضد النظام الرأسمالي الذي يولد الاستعمار والاستعمار الجديد، كذلك أشير في هذا الكتاب إلى التأثير الإيجابي الفعال الذي مارسه ولا زال يمارسه في تطور البلدان العربية، تغير نسبة القوى في العالم في مصلحة الاشتراكية، هذا أهم ما أشارت إليه مقدمة الكتاب وفي الأخير تأمل أن يلقى الكتاب الاهتمام الكبير لا من جانب الاختصاصيين وحسب، بل أيضا من جانب من يتتبعون تطور العالم المعاصر.

*أصدرته أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي- معهد الاستشراق عام 1975م كطبعة أولى أما الطبعة الثانية فكانت في يناير 2016م عن دار الفارابي-بيروت لبنان-